



رُوِيَ عن بعض السلف قوله: «من لم يملك نفسه فليس بأهل أن يملك غيره»، وقال بعض الحكماء: «العاجز من عجز عن سياسة نفسه»، وقال الشاعر:

ابداً بنفسك فأنهما عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تسمع إن وعظت ويقتدى
بالقول منك، ويُقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

ويحكون عن عبدالله بن هارون بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أنه لما شاع الفساد في عامة رعيته، شاور نصائحه، فقال بعضهم: الرأي أن تجمع قوماً فتصلبهم، وقال آخرون: بل تعمر بهم السجون. واختلفوا في القول، فقال: ليس الرأي شيئاً مما قلتم، ولكن الرأي أن أبداً فأصلاح نفسي، فإذا صلحت نفسي صلح باطني، وإذا صلح باطني دب الصلاح ونشأ في رعيتي. قالوا: وفقك الله، وعمل بذلك الرأي فرأى الخير عليه.
وأياً ما كان فمقتضى العقل ما جاء به الشرع حيث قال الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتَلَوَنَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤]، ومن المعلوم في شؤون الدنيا أن المشاريع يقل مردودها، ويضعف إنتاجها إذا كان القائمون عليها مفرطين، متوانين، غير متحمسين لها.

وهكذا مشاريع الآخرة، هكذا استصلاح الناس، واستنفاذهم من الوهن.
والمحضود بهذه الكلمة تذكير إخوتي من الدعاة، وقد قال ربنا: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، ومنه انتزع بعض العلماء أنه لا غنى للمؤمن وهو مؤمن عن التذكير بما يزيد الإيمان ويبثته، وإلا رجع القهقري، ولهذا فرضت الموعضة على المؤمنين مرة في الأسبوع على الأقل وذلك يوم الجمعة، فلا غنى لكل من يُحال على خير عن التذكير بين فينة وأخرى، وذلك من أسباب ثبات المحسن وزيادة إحسانه، ومراجعة المقصر وتدارك شأنه، وموضوعي «الدعاة والوهن»،

ولفظ الدعاء أشبه بالاصطلاح المعاصر على الهداء معلمي الناس الخير ومذكريهم بالله ورعايته حدوده، من المشايخ وطلاب العلم، وقد يدخل فيهم العلماء، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وأما الوهن في ينبغي أن نقف عنده قليلاً، فهو من حيث الأصل الضعف؛ في العَظُم والبدن، وفي العمل والأمر، فهو ضعف في الحالة النفسية، أو في الحالة البدنية، فهو ضعف حسي، أو ضعف معنوي.

وهو درجات نبه النبي على أدناها وذلك في حديث ثوبان رضي الله عنه الذي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما وصححه جمع من أهل العلم، قال: **«بِوْشَكُ الْأَمْمٍ أَنْ تَدْعُوا عَلَيْكُمْ كَمَا تَدْعُوا الْأَكْلَةَ إِلَى قَصْعَتِهَا»**.

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟

قال: بل أنتم يومئذ كثيرون، ولكنكم غثاء كفثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، ولينقذن الله في قلوبكم الوهن.

فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟

قال: حب الدنيا وكراهيَة الموت».

فعلم من هذا الحديث أن من الوهن حب الدنيا وكراهيَة الموت؛ والمقصود الموت في سبيل الله عز وجل حيث شرعت مظانه كالجهاد في سبيل الله، وكقول كلمة الحق في وجه سلطان جائر إبراء للذمة ونصحاً للأمة متى تحققت شروط ذلك. وإذا كان بإثمار الحياة الدنيا أو تقديم كراهيَة الموت على المطلوب الشرعي وهذا، فأشد منه إثمار بعض متع تلك الحياة ونعمها على المطلوب الشرعي، فإثمار المنصب الدنيوي أو الوظيفة أو الجاه أو مصلحةٍ شخصية أخرى على المطلوب الشرعي وهنُ أشد من إثمار الحياة أعني: كراهيَة الموت.

ومن هذا تعلم أن الوهن دركات، وإذا لاحظنا ذلك علمنا أن المؤثر في زيادة أمران:

الأول: زيادة الوهن بازياد إثمار عرض من أعراض الدنيا على المطلوب الشرعي، فكلما قوي حب الدنيا – فالحب درجات – أو قويت كراهيَة فوت العرض الدنيوي كلما زاد الوهن.

الثاني: زيادة الوهن بإثمار ما حقر من الأعراض الدنيوية على المطلوبات الشرعية العظمى، فكلما كان المقدم على المطلوب الشرعي أتفه وأقل شأنًا كان الوهن أشد والداء أعظم، وكلما فات بسبب حب الدنيا مطلوب شرعياً عظيم كان الوهن بحسبه عظيماً.

وإذا نظرنا في واقعنا، وفي إحجام كثير من الناس عن واجب البلاغ، وواجب العمل للدين، وبه، وواجب نصرة إخواننا المستضعفين والمظلومين، وجدنا سببه عند كثير منهم تقديم أعراض دنيوية أقل من القليلة! على المطلوب شرعاً بل على المطلوبات الشرعية العظيمة.

وهذه آفة تعرض لعموم الناس قل أن ينجو منها أحدٌ في مسائل جزئية؛ إما بسبب الاجتهاد أو التأويل المعتبر، أو بالتأويل الذي لا يخلو من هوى أو تقصير، أو بسبب التفريط الظاهر، والمصاب بهذا على سبيل نجاً ما دام يراجع نفسه، ويصحح مساره، ويعود إلى الجادة من جديد، لكنه على خطر متى غداً ذلك العرض وصفاً لازماً، متمكنًا من القلب، فهنا يعود الوهن من كونه جزئياً إلى كونه منهاجاً كلياً.

ومما يتأنول به كثير من الناس، كون التكليف بحسب القدرة، كما قال الله تعالى: **{لَا يُكَافِدُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا فُسْعَهَا}** [البقرة: 286]، **{لَا يُكَافِدُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا أَتَاهَا}** [الطلاق: 7]، وهذا حق، غير أن حديث ثوبان فيه إشارة إلى أن تقديم مراد الله على كراهيَة الموت ليس تكليفاً بما لا يطاق، بل هو من في الْوَسْعِ! ولهذا يكون jihad في بعض الأحوال فرضًا مع كونه مظنة ذهاب المهج والنفوس، ويكون الثبات في الصدف فرضًا مع خوف التلف أو الضرار، ولم يكن ذلك عذرًا في الفرار. وإنما الرخصة التي تسوغ القعود حيث يظن حصول الضرار، وفوت المصلحة، فللواحد أن يفر من الثلاثة إن ظن التلف، وله

السکوت عن المنکر إن خاف الضرر ولم ير إنکاره ما يحق حقاً أو يبطل باطلأ.

فمثى كانت المصلحة الشرعية متنافية أو غير متحققة، والضرر متحقق، فهنا المطلوب الشرعي هو زوال الضرر، بخلاف ما لو كانت المصلحة الشرعية متحققة، والأذى أو الضرر الشخصي قد يحصل وقد لا يحصل، فهنا الواجب تقديم المطلوب الشرعي، وحوادث الناس ونوازيلهم بين الأمرين أعني بين ما يجب فيه تقديم المطلوب الشرعي المضمون على خوف الضرر المظنون، وما يجب فيه تقديم منع الضرر المحقق على المطلوب الشرعي المظنون تتحقق، وللإجتهداد في ذلك مجال، ولا يوفق فيه إلا من أخلص واجتهد في النظر والتخلص من الهوى، ثم اتبع أقوم السبل الممكنة لإقامة الشع، وكذلك للإجتهداد مجال أرجح حيث يكون الضرر متحققاً والمصلحة المأمور بها كذلك متحققة، أو يكون الضرر متنفياً وكذلك المصلحة.

والدعاة بحاجة إلى ضبط المعادلة حتى لا يصابوا بالوهن، وحتى لا ينقطعوا بسبب الحماس الزائد الذي لا يبقي ظهراً فلا يقطع صاحبه أرضًا! كحال أناسٍ كثير أرادوا إقامة حكم الله ولا قدرة لهم فكلفوا أنفسهم والناس ما لا يطيقون فآلت حال بعضهم إلى ما نرى! والمقصود متى تحقق المطلوب الشرعي قدم على المصلحة أو خوف الضرر الشخصي، ومتي ظن عدم تتحققه قدم دفع الضرر، ثم قد يكون خوف الضرر رخصة في ترك الأمر وقد لا يكون.

وضبط هذه المعادلة اليوم يفتقر إلى كثير من العلم بالشرع، وال بصيرة في الواقع، افتقاراً يعز في زماننا هذا أن يسدّ شخص بمفرده مهما بلغ، بل لا بد من شراكة، لا بد من تضافر جهود وتشاور عقول، ليكتمل التصور الشرعي، وينزل موضعه الصحيح، ولئن كان العمل الجماعي ضرورة في الأمور الدنيوية المعاصرة فإقامة منشأة محكمة - جسر أو عمارة مثلاً - لا بد من توافر جهود مهندسين معماريين ومدنيين وكهربائيين مع إداريين ومحاسبين وهلم جراً، وكذلك لإقامة دين الله تحتاج إلى تضافر جهود علمية وتحليلية بعيدة النظر في الواقع لنقوم بالواجب الشرعي تجاهه.

إن الحملة اليوم على الإسلام الصحيح شديدة، وقد تداعت علينا الأمم، وسبب ذلك منبه عليه منصوص ألا وهو الوهن: حب الدنيا وتعظيمها على إنفاذ أمر الله، ومتى قدم المسلمون - وأخص دعاتهم: علماءهم وطلاب العلم منهم ومشايخهم - حب الدنيا على الجهاد المشروع في سبيل الله تعالى بمفهومه الشرعي العام الشامل للجهاد بالنفس، والمال، واللسان، والقلم، وغير ذلك؛ فيقعد عن قتال الكفار المتعين حبّاً للدنيا وكراهية للموت، أو يقعد عن دعم المجاهدين بالمال، أو دعم مشاريع استصلاح الأمة ومحاربة الجهل وأهل الجهلة من العلمانيين والمنافقين، أو يقعد عن جهاد القلم وقول كلمة الحق الواجب بيانها، تاركاً واجب النصح مصانعاً الباطل وأهله، متى كان ذلك فقد وقع الوهن فلا غرو أن يتسلط الأعداء.

وبعض الناس يحسب أن سبب الوهن تسلط الأعداء وكثريتهم، وال الصحيح أن العدو إنما يتسلط على من أصابه الوهن، فهذا الذي تضعضعت نفسه، سهل على عدوه أن يتاجر عليه، وعدونا عدو ديانة متربص من قديم، يحجم إن وجد فيها قوة وجلاً، ويقدم إن رأى وهنا وضعفاً، فالوهن هو الذي يطمع الأعداء فيما فيتكلبون، وعندها يزداد وهن بعض النفوس التي تعبد الله على حرف، فإن أصحابها خير أطمأنت به وإن أصحابها فتنة انقلب على وجوهها، وارتدى على أدبارها!

إن واقع كثير من يشار إليهم بالبنان، ويظن بهم الخير والديانة مؤسف، لم يعد الأمر عندهم مقتضياً على مجرد الضعف، ولا الترخيص المعتبر، أو ترك العزائم ومعالي الأمور، بل صارت علة كثير منهم الترخيص في قول الباطل، والوقوف مع أهله، لا في السکوت عن الحق، أو في ترك مناصرة أهله، وآفة هؤلاء تجاوزت الوهن إلى مرض القلب فكانوا هم من جملة الأعداء، وإذا كان الإمام أحمد رحمه الله قد هجر أقواماً بل عدداً من الأئمة أجابوا في المحنـة مترخصين، إذ لا يحسن بمثلهم أن يجيبوا حيث كانت إجابتهم للناس فتنة إذا كان هذا شأن الإمام أحمد مع رجال صادقين مرضيـن كـيحيـي بن معـين وعلـي بن المـديـني وإبراهـيم الحـربـي وغـيرـهـمـ، فـكـيفـ يـجـبـ أنـ يـكـونـ الشـائـنـ معـ منـ وـقـفـ معـ الـبـاطـلـ وـسـانـدـهـ وـكـانـ ظـهـيرـاـ لـهـ، قدـ يـسـعنـاـ - وأقول قد - السکوت عن الحق، لكن لا يسعنا الوقوف مع الباطل ومناصرته، ومن آلت به الحال إلى هذا، واستمرأه فقد تجاوزت علـهـ وـهـنـ الجـسـدـ إـلـىـ مـرـضـ القـلـبـ!

ختاماً أعيد ما بدأته.. الدعاء بحاجة إلى أن يبثوا في الأمة هذه المعاني فإن الوهن العام الذي تعيشه الأمة من جملة الأسفاق، وهذا يبشر بأن له دواء، والدعاء المتقون هم أطباؤه:

**وغير تقي يأمر الناس بالتقى
طبيب يداوي الناس وهو مريض!**

ومثل هذا قد ينفع الله به، لكنه لن يكون كالقوى الصحيح سليم القلب والبدن، وقد لا ينتفع به بل قد ينقل العدوى، فحرى بالدعاة أن يذكّر أيضًا بعضهم بعضاً بهذه المعاني إذ يقل في المجتمعات من يذكرهم، فالناس يرونهم قدوة، والله عز وجل يقول: {وَالْعَصْرُ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۚ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، ثم قال: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ} [العصر: ۱ - ۳]، جعلني الله وإياكم منهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مجلة البيان

المصادر: